مقاصد الحج

تقديم

أناهيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

ألقيت في ١٤٣٧

من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الرابع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحن في ختام هذه اللقاءات نشكر الله -عزَّ وجلَّ- شكرًا يليق بجلاله وعظمته ونعمائه فقد منَّ علينا بأن نكون من أهل الإسلام وممن يعرف هذا الدين وممن يعرف عظمة رب العالمين، وهذا يسبب سلامة قلب الإنسان وصلاحه ووصوله إلى الغايات من الحياة؛ فلا يكون عبدًا تائهًا، بل يكون عبدًا مسترشدًا بهداية رب العالمين له.

كنا نتكلم فيما مضى عن مقاصد الحج، وأردنا بذلك أن نبين عظمة رب العالمين وكيف شرّع لنا شرعًا كله محاسن، من عرف الإنسان وعرف حاجات الإنسان وعرف تيه الإنسان وخوفه، وعرف هذه المسائل الدقيقة، عرف أن الشرع الحكيم قد أتى ليجعل هذه الأمور مستقرة ويدفع عن الإنسان شر نفسه وشر الشيطان ويجلب للإنسان الخيرات كلها.

فهذه المحاسن لا بد أن نبقى على ذكر منها سواءً كنا حجاجًا أو لسنا بحجاج، محاسن هذا الدين لا بد أن تبقى منشورة بين العالمين؛ لأن هذا مما يزيد اليقين، الذي يريد أن

يزيد اليقين بهذا الدين العظيم لا بد أن يكون دائمًا مطلعًا على محاسنه.

ومن أجل أن تعرف المحاسن انظر إلى مقاصد العبادات، مقاصد العبادات تبين لك المحاسن، عندما يأتي أحد يجرد عبادة الصلاة ويجعلها مجرد حركات! ولا يفهم مقاصد الصلاة! ستصبح الصلاة عنده مثل الرياضة ويصبح مقصدها مقصد الرياضة، ولا يقف الأمر هنا، إنما يمكن أن يتطور فيستعملون بعض الحركات التي تأتي مثلًا من "اليوجا" على أنها تصرفات بدنية يمكن أن يستفيد منها الإنسان.

فحينما تُعرَض العبادات بعيدة عن المقاصد تفقد روحها، وحينما تُعرض العبادات بعيدة عن المقاصد يمكن تعويضها بأي شيء! يصبح بدلًا من إقامة الصلاة يمارسون بعض الرياضات أو يقومون مثلًا بحالات من التأمل مما يسمونه "اليوجا" وغيرها!

لكن حينما نعرف المقاصد نعرف أنه لا يحل مكان هذه العبادات أي شيء ولا مكان هذه الأذكار أي شيء، كل ذكر بتفصيله نحن بحاجة إليه. أين الإشكال؟ الإشكال يبدأ من عند أننا لا نعرف حاجات أنفسنا ومن ثم حينما تأتي الأوامر الشرعية، لا نعرف أن هذه الأوامر الشرعية تغطي الحاجات

النفسية، فما نشعر بمحاسن الشريعة، كل أمر شرعي يُغطي حاجة في النفس، ولا نحتاج إلى الاستشهاد بأحد يقول لك: "أنا لما دخلت في الدين كان أكثر شيء يجذبني له السجود." الكفار حينما يدخلون إلى الدين يتكلمون عن دقائق حاجات، المسلمون ما شعروا أنهم بحاجة لها؛ لأن الله ابتدأهم النِّعمة، وهذا حتى تفهمه افهمه في الدنيا، الناس الذين أنعم الله عليهم بوالدين ويرعونهم ويهتمون بهم، هل يشعرون بقيمة والديهم مثل الأيتام؟ لا، اليتامى يرون أن وجود الوالدين أهم من كل شيء في الحياة، في مقابل أن الذين عندهم والدين لا يقدرون هذه النعمة قدرها بل قد يزعجهم وجودهم؛ لأنهم يأمرونهم وينهونهم ويحبسونهم، وهم يريدون أن ينفلتوا! أو وجودهم طيب، وأحسن من لا شيء فقط! ليست لأنها نعمة عليهم أن يشكروا الله عليها.

هذه الصورة تشبه صورتنا مع الإسلام، الذي كان فاقدًا للإسلام ثم وجده مثل اليتيم بلا والدين ويتمنى وجودهما، والذي عنده الإسلام ولا يشعر بمحاسنه وبحاجته الشديدة إليه مثل الذي عنده والدين ولا يشعر بوجودهما بل يتمنى زوالهما! طبعًا هذا في الحالات السيئة الذي يتمنى زوالهما، لكن كثيرًا من الأبناء لا يشعرون بوجود الوالدين ولا بنعمتهما، مثلما لا نشعر بنعمة الإسلام وبمحاسن الإسلام،

وهذا عيب في الإيمان، أنت حينما تنقاد للشريعة وتُسلِّم لها يجب أن يكون هناك شعور يقابل هذا الانقياد، وهو أن تعرف أن كل الذي تؤمر به يغطي حاجة داخل نفسك وأنت لا تعرف كيف هذا الأمر غطى هذه الحاجة.

تتقدم في العمر وتكثر خبرتك وتكون فطينًا، بصيرًا، يفتح الله عليك؛ فتبدأ تشعر أنه لو ما وجدت هذه الشريعة ما سُدت هذه الحاجة، لو ما وجدت هذه الشريعة ما سُدت هذه الحاجة وهكذا، لكن نفترض أنك ما تأملت، ما تفكرت، تبقى منقادًا مستسلمًا شاعرًا أنه لا يوجد شريعة شُرِّعت في هذا الدين إلا والإنسان يحتاجها ليكون سويًا نفسيًا، لا توجد شريعة ولا أدب ولا ضبط لعلاقات الإنسان مع الناس ولا لعلاقة الإنسان مع ربه إلا والإنسان يحتاجها في دقائق نفسه، لكن دقائق نفسه هذه هو لا يعرفها! لكن الله قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]، ولو تفكرتم في اسمي الخبير اللطيف ستفهمون جيدًا هذا المعنى؛ لأن اسمي اللطيف الخبير هنا في هذا الموطن يدل على خفاء هذا العلم، يعني الله -سبحانه وتعالى- يعلم خفايا ما في قلب الإنسان، وخفايا ما في مخلوقاته على وجه العموم، بمعنى أنه يعلم خفايا شؤونهم ولو خصصت الكلام عن الإنسان ستقول: إن اللطيف الخبير

[1]() الملك: 14.

لما شرّع الشرع كان يعلم دقائق أحوال الإنسان، فكان الشرع موافقًا لهذه الدقائق.

فتنظر إلى الصلاة وتقول إنك محتاج في يومك وليلتك إلى ما يغسل الذنوب ويعيد مرةً أخرى صلتك برب العالمين، فيبقى طوال اليوم سندك وملجأك ومعاذك وملاذك، وتبقى مستشعرًا قربه، وتتذكره وكلما عصفت بك الهموم قلت: "الله أكبر"، فلا يوجد شيء يعظم ويزيد عن مكانه في حياتك ولا تضطرب اضطرابًا يجعلك تصل إلى أن تيأس؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- أكبر من كل شيء تخافه، ترجوه، يهددك، الله أكبر من هذا كله. فأنت تقول: "الله أكبر" وتمرّ بالحياة وتكبّر وتدخل في الصلاة وتقف بين يدي الله وتثني عليه وتسجد بين يديه وتسأله وترجوه وتخرج وذنوبك قد مُحيت، وفكر في هذا من عند الوضوء، كيف أن كل عضو من هذه الأعضاء التي تقترف الذنوب وغدًا ستكون هذه الأعضاء شاهدة عليك، ثم حينما تغسلها تغسلها وأنت تقصد بهذا الغسيل أن تأتي غدًا شاهدةً على الخير.

وفي سورة فصلت سمعنا أن أسماعنا وأبصارنا وجلودنا ستشهد علينا، فحينما تطهر هذه الأسماع والأبصار والجلود يكون الناتج أنها تشهد على أهلها بالخير لا بالشرّ.

فالذي يعلم الإنسان ويعلم دقائق حاله وما سيؤول إليه وكيف سيأتي الحساب، شرّع شرّعًا يناسبه، شرّع شرّعًا يصل به الإنسان إلى أرقى أحوال الإنسانية، تدخل الصلاة وأنت تريد المغفرة من الله، تريد القبول من الله وتكون صادقًا، حاضر القلب، هذا الشرط المهم، حينئذ ستخرج من الصلاة ولا تريد أن يؤذي حتى الأرض، ومن صفات عباد الرحمن أنهم: (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)[2] حتى الأرض لا تتأذى منهم؛ لأنهم عبيد ذليلون، منكسرون، يعلمون إن سيدهم ومولاهم ينظر إليهم، فلا يريدون أن يؤذوا حتى الأرض التي تحت أقدامهم.

فهذه مقاصد الشريعة، والمشكلة أنك عندما تعرض أعمال الشرع مجردة عن المقاصد؛ تفتح بابًا لأهل العقلانية أن يطعنوا في الشريعة، ويأتي اللبرالي، والعلماني، ومن على شاكلتهم إلى أن تقوم الساعة، حينما تقول لهم: (لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) يقولون: (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)[3] يأتون فيطعنون في الشريعة، يقولون: "ما الداعي لأن نفعل كذا؟ لماذا نشق على أنفسنا بكذا؟" فعندما تعرض أعمال الشرع مجردة عن المقاصد؛ تفتح بابًا لأهل العقلانية أن يطعنوا في الشريعة، لكن حينما تعرض الشريعة بمقاصدها؛ تكون النتيجة أن يعلم

---

[2] () الفرقان: 63.
[3] () البقرة: 11.

الإنسان محاسن هذه الشريعة، ويفهم أن الله -عزَّ وجلَّ- لما أمره ما أمره إلا لصلاح نفسه، أمرك بالشرع لصلاح نفسك.

توجد دائرة يجب أن تدخل في تفكيرنا وهي دائرة محاسن الشريعة، معنى ذلك أن هذا الشرع لما أُمرت به، ما أُمرت بمسائل مجردة ولا مسائل لا تجد لها طعمًا ولا ذوقًا؛ بل أنت تجد فيها طعمًا وذوقًا وصلاحًا ورقيًا لكن الشرط الذي يوصلك إلى هذا سنتفق عليه اليوم وهو: الكلام عن العبادات القلبية المتصلة بالعبادات الجارحية.

وهذا من مقاصد الشريعة؛ من مقاصد الشريعة أن يكون قلبك طاهرًا بسبب العبادات التي تعبد الله بها.

إذًا لماذا مقاصد الشريعة مهمة؟ لأنها تبرز محاسن الشريعة.

ما هي أهمية محاسن الشريعة؟ إنها بمثابة الروح للشرع.

أنت مأمور بأوامر ورائها مصالح، المصالح كلها عائدة عليك، أنت تصبح في حالة من الرقي إذا التزمت بالشريعة وفهمت مقاصدها.

نقاشنا خلال الأيام الماضية كان حول مقاصد الحج، واتفقنا على أن الحجّ من ضمن العبادات التي أُمرنا فيها بأعمال وهذه الأعمال لها مقاصد، ووضعنا قاعدة عامة للمقاصد

وهي: رعاية نبتة الإيمان، زيادة الإيمان. أنت تذهب للحج والمتوقع أن يزداد إيمانك.

متى يزداد إيمانك؟ حينما يعيش قلبك المواقف مع جوارحك، أي أن الحجّ مجردًا عبارة عن رحلة وانتقال، لو أردت أن تجرده من المقاصد سيكون مجرد انتقالات، حينما تأتي المقاصد تأتي الآثار العظيمة للحجّ على الإنسان، فيطهر قلبه ويخرج من ذنوبه ويرجع يرى الحياة بصورة مختلفة. متى يحصل ذلك؟ عندما يكون قلبه حاضرًا مع بدنه في الحجّ.

فالذي يتوه قلبه منه لا يوجد أحد يأتي له بقلبه وتجده يقول: "قالوا في الحجّ ستشعر بكذا وأنا لا أشعر بأي شيء!" نقول له الأزمة عندك، أنت أتيت وقلبك تائه فهذه أزمتك كونك غير حاضر القلب.

ولذلك من الأشياء التي ندخل بها على الحجّ التوبة والاستغفار، التوبة والاستغفار من الأعمال التي لا بد منها في أي موسم طاعة يدخل به الإنسان. لماذا؟ لأن التوبة والاستغفار كأنهما يغسلان القلب ويطهرانه من أجل أن تقع عليه آثار العمل، يجب أن تتوب وتستغفر قبل كل زمن فاضل، حتى الجماعة الذين لم يذهبوا للحجّ سيدخل عليهم

عشر ذي الحجة، وعشر ذي الحجة هذه أيام فاضلة عظيمة عند رب العالمين، وقد تكلم العلماء كثيرًا في المقارنة بين عشر ذي الحجة وبين العشر الأخيرة من رمضان، إشارة إلى مكانتها عند ربّ العالمين.

إذًا الذي حجّ والذي لم يحجّ المفترض أن يدخل على الزمن الفاضل بالتوبة والاستغفار. لماذا؟ لأن الإناء الذي سيستقبل آثار الطاعة هو القلب، فكأنه يقال لك: نظف قبل أن تدخل، لا تصاحب معك ذنوبك، لا يكن طبعك أنك لا تترك أحدًا إلا وانتقدته واستهزأت به. وهذا مثله كثير عند الناس، معتبرون أن هذا شيء من لطافة الشخصية! أن يعلقوا على كل شيء ويستهزؤوا به، وهو طبع عند الصغار أكثر من الكبار، الكبار كلما نضجوا كلما صار هذا الأمر لا يعنيهم. فلو ذهبوا للحجّ ومعهم هذا الذنب، فلك أن تتصور أنهم لن يتركوا حاجّ في الشارع ولا حاجّةً في المخيم ولا شرطيًا في الطريق ولن يتركوا أي أحد إلا ويعلقون عليه، ثم ينتظرون أن ترجع قلوبهم طاهرة ومشاعرهم جميلة! من أين يحصل هذا الأمر؟! أنت المفترض قبل أن تدخل أن تطهر الإناء والذي سيتغير هو قلبك، فحينما يكون القلب ما طهر أو تكون اصطحبت معك ما يجعله غير زاكيًا ويجعله مُدنسًا، أو أن تكون ما زلت كما أنت في البيت تقلب المقاطع فترى الذي يصلح أن تراه

والذي لا يصلح أن تراه، وأنت في هذا المكان! فمن أين لقلبك أن يزكو؟!

إذًا من أهم مقاصد الشريعة في الحجّ: ما يحصل في الحجّ من العبادات القلبية؛ ولذا شُرع في كل طاعة قبل أن ندخلها التوبة والاستغفار. لماذا؟ لأن الإناء الذي سينعكس عليه آثار الطاعة هو قلبك، فإذا ما كان طاهرًا بالتوبة والاستغفار لن ينفعه أن تنتقل من عرفة إلى منى ومن منى إلى مزدلفة، لن تنفعه هذا الانتقالات ولن يبصر هذه الأحوال، والذي حجّ كثيرًا وخالط الناس يعرف أنه حينما يكون القلب مُدنسًا -والعياذ بالله- قد يقول الإنسان -في تلك المشاعر العظيمة، في تلك الأماكن المقدسة المعظّمة عند رب العالمين- كلمة تخرجه عن الدين! ويؤسفنا أن نقول إننا نبتلى بمثل هذا! لكن ما هي المشكلة؟ المشكلة أنه أتى وقلبه غير مستعد لأن هذا جهاد، غير مستعد لأن هذا تطهير لقلبه، لم يُليِّن قلبه قبل أن يأتي، الأماكن لن تليّن القلب أنت تأتي للطاعة وقد تُبت واستغفرت وأردت الصلاح لقلبك، ثم إذا فعلت هذا يفتح الله لك أبواب قلبك وينزل على قلبك آثار الطاعات، وترى ببصيرتك ما لا يراه غيرك؛ لأن هنا سيتكون للقلب بصيرة وسترى هذا الموقف الذي يصلح نفسك وترى هذا الموقف الذي يغير في نفسك كذا، وتجاهد هذا الجهاد فتنجح فيصبح

من سمْتك أن تكون مجاهدًا، يعني بقيت في الحجّ تجاهد قلبك على ألا يحتقر الناس، أنت تعرف نفسك أنك متكبرٌ، ترى أنك أحسن من الخلق، أو ترد الحق على الخلق، هذه صفتك! أنت كاشف لنفسك وتفهمها، ثم ذهبت ستختلط بالناس يجب أن تختلط بالناس في كل مكان، ولا تتكلم بصورة إنسان مؤدب لكن من الداخل يوجد احتقار وعدم احترام للناس وتقليل لكلمتهم.

ثم دخلت الحجّ مجاهدًا لنفسك في هذا، وكلما فعل قلبك فعلًا من هذا النوع عُدت واستغفرت ورددت نفسك وأدّبتها وقلت: "لا أدري من المقبول؟ من سيسبق؟ من يشفع لمن يوم القيامة؟" وبقيت تؤدب نفسك هذا الأدب طوال الوقت بهذه الطريقة، من منّة الله عليك أن يقبل منك هذا العمل ويشفيك من هذا المرض، مثلما يذهب الناس لعرفة حتى يطلبوا من الله أن يشفيهم من أمراض الأبدان، فعرفة مكان لدعاء الله أن يشفينا من مرض القلوب، ومرض القلب هو المرض الحقيقي الذي لو بقي في الإنسان، مهما تعافى بدنه فلن تنفعه هذه العافية.

وقد ذكر أهل العلم أن من أوائل الأشياء التي نستحضرها حينما نقول: «اللَّهمَّ إنِّي أسألُك العفوَ والعافيةَ»[4] أن نسأل الله -عزَّ وجلَّ- عافية القلب.

باختصار شديد من مقاصد الحجّ الأعمال القلبية، ولماذا الأعمال القلبية؟ لأن صلاح الإنسان مرهون بعمل القلب، وقد قال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فسَدَت فسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهي القَلبُ.»[5] ، فيأتي الحجّ من أجل إصلاح القلب، لكن بداية الإصلاح يجب أن يكون بالتوبة والاستغفار والدخول على هذا الحجّ بصورة صحيحة.

سنبدأ الآن في الكلام الذي اختصرناه بالأمس، قلنا إن من مقاصد الحجّ العبادات القلبية وبدأنا بالكلام عن الصدق والإخلاص.

الداخل على الحجّ يُنتظر منه أن يكون شحن نفسه بقوة الصدق الذي سبق دخول العبادة، الصدق ليس مثل الإخلاص، الصدق يسبق الإخلاص، وقد اتفقنا على تعريف بسيط للصدق وهو:

الباعث الذي يبعث الإنسان على الحج.

---

[4]() أخرجه ابن ماجه (3851).
[5]() أخرجه البخاري (52).

تأتيني كثير من الشابات الصغار في الحجّ، أسألها: "لماذا أتيتِ للحجّ؟" تقول: "لأن والداي قالوا لي حجّي!" هذا الباعث عندها! هو خير وبركة وأحسن من التي تريد أن تمدح ويثنى عليها، لكن هذا الباعث ناقص، لا بد من الإحساس بأن هذا ركن من أركان الإسلام وبأنها تفعل بهذا طاعة لله. فالذي يدفع بأبنائه بالحجّ في هذا العمر يكون أحسن إليه، لكن من الضروري أن ينبههم على المقصد من الحجّ، يقول لابنته: "أنت ما حججتِ لأني قلت لك حجّي؛ حججتِ لأن هذا ركن من أركان الإسلام ونحن بفضل الله عندنا الاستطاعة لذلك فلا بد أن يكون الدافع أن تقيمي هذا الركن، ليس مجرد أن تسيري مع السائرين!"

معنى ذلك أن مقاصد الحجّ قد يحصل فيها كثير من الاختلاط وقد لا نفكر في الباعث، لا نفكر فيه نتيجة العادة في الحجّ أو نتيجة أن الجيران سيحجون فقلت لهم: "إذا كنتم هذه السنة ستحجّون، فسجلوني معكم!" أو قيل لك: "قبلوك في الحملة"، فتذهب معهم وينتهي الأمر!

هذا المقصد غير واضح، ومن ثمَّ ستبقى كل الأعمال غير واضحة ومن ثمَّ جمع القلب على الخطوة الثانية وهي الإخلاص سيكون فيه شيء من الصعوبة، ما هي المقاصد

الصحيحة للحجّ؟ الذاهب للحجّ ماذا يريد في حقيقة شأنه ليصحّ عمله؟

إذا فهمت نتيجة الحجّ ستفهم ما هو المقصد، المقصد الرئيس من وراء الحجّ هو: أن يخرج الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

حين يعلم الإنسان مقصد الحجّ، سيرى الحجّ مكانًا للطهارة، وهذه المشاعر فيها صدق ولن تأتي إلّا لإنسان يشعر بكل الرحلة، يشعر كم أذنب فيما مضى، كم أخطأ، ويشعر بأن موعد لقاء الله قريب، ويشعر بأن عليه من الأثقال ما عليه من جهة الذنوب والمعاصي ومن جهة التقصير وقلة العمل، حينئذ سيخرج إلى هذا المكان في خمسة أيام ثم يبذل جهده أن يعود طاهرًا، والطهارة هذه مقصد بنفسها، رغبة، ثم إن العبد الذي سيعود طاهرًا من ذنوبه لا بد أن يحقق الشروط كما في الحديث، هل كل من حجّ عاد كيوم ولدته أمه؟! لا، قال رسول الله: «مَن حَجَّ هذا البَيتَ فلَم يَرفُثْ ولَم يَفسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْه أُمُّه.»[6]

إذًا هناك شروط والصدق سيتضمن هذا المعنى، كأن العبد يقول: "أنا أريد أن أدخل عبادة وأخرج منها طاهرًا وأصلح بها قلبي!" فيصبح من صدقه إرادة إصلاح نفسه، وهذا تسمع

---

[6]() أخرجه البخاري (1820).

عنه من كلام الناس، يقولون: "من البواعث التي بعثتهم على الحجّ أنهم رأوا من ذهب للحجّ، ثم رجع مستقيمًا!" فهذا باعث جيد بمعنى أن يشعر الإنسان أنه إذا ذهب للحجّ سيعود مستقيمًا، فهو يريد أن يذهب للحج على أن يعود أحسن مما ذهب، تغفر له ذنوبه وتصلح له أحواله، هذا من أحسن المقاصد ترى نفسك أنك لو ذهبت للحجّ وفعلت ما يجب واجتهدت ترجع كيوم ولدتك أمك، وقد صلح شأنك، يعني ليس فقط الماضي الذي ستُغفر ذنوبه، بل سيصلح المستقبل، وهذا صحيح، الحجّ عند كثير من الناس نقطة تحول في تفكيرهم، نقطة تحول في حياتهم وفي أحوالهم؛ والسبب في ذلك أنهم انتفعوا في جهاد أنفسهم ونظروا إلى المقاصد، وكثير من يوفقن في أن يجدوا صحبة تكلمهم وتنصحهم فيكون الحجّ نقطة انطلاق جيدة في حياتهم بعد ذلك.

إذًا من أحسن المقاصد أن يتصور الإنسان أن هذا العمل سيخرجه من جهة ذنوبه طاهرًا ومن جهة مستقبل حياته مستقيمًا، وفي داخل هذا الصدق يأتي شعور آخر مهم جدًا وهو عند من رقّ قلبه وذاق طعم الحجّ أو ذاق طعم الوصل مع ربّ العالمين وهو من أهم الدَّوافع، ألا وهو الشوق إلى الحجّ، ليس المقصود الشوق للأماكن، بل الشوق لهذه الأعمال، شوق إلى ما يكون في عرفة في ذاك الوقت العظيم

من الشعور بنزول رب العالمين نزولًا يليق بجلاله، ومباهاته بأهل الموقف، والشوق إلى اليوم العاشر والنحر ورمي الجمرات، كل هذه المواقف العظيمة عندما يكون الإنسان في داخلها، يشعر بمشاعر، لكن حينما يخرج عنها وهو يكون صحّ قلبه، يشعر بالشوق الشديد إليها، وهو في داخلها توجد مشاعر الحب لهذه الأشياء وحينما يخرج يبقى قلبه مشتاقًا إلى مثل هذه المواطن؛ ولذلك تجد بعض الناس -اليوم مع التصاريح- يقول لك: "يجب أن أذهب؛ لأني مشتاق للحجّ، لكن ما تمت الخمس سنوات!" فيقول: "لا بأس أحجّ عن غيري"، طبعًا حينما يحجّ عن غيره الصحيح أن أجر الحجّ يكون لغيره، يعني يحج عن متوفى فيكون أجر الحجّ لغيره، وهو ليس له إلا البر والصلة، والبر والصلة ليس بالشيء القليل، البر والصلة شيء عظيم، بالإضافة لحضوره الموقف، فما الدافع الذي يدفعه ليحجّ عن غيره؟ الشوق، وهذا باعث صدق؛ أنه مشتاق للأماكن وليس له حيلة يذهب لها إلا بهذه الطريقة سواء ليس عنده تصريح أو ليس عنده مال.

المقصد أن البواعث لا بد أن تكون صحيحة ونراجعها، فأنت لن تخرج لنزهة أنت ستخرج إلى جهاد، وهنا يأتي موقف مهم وهو: وسوسة الشيطان، في الصدق، في البواعث، هناك نوعان من الوسواس يأتيانا:

النوع الأول: يقول لك: "أنت غير صادق وأنت تريد أن يقال عنك كذا!" ويوسوس لك الشيطان في عدم صدقك، كيف تدفع هذا الوسواس؟ أن تسأل الله أن يوفقك للصدق، وألا تستسلم للشيطان ولا تستسلم للوساوس.

يأتيك في الإخلاص يقول لك: "أنت تكذب وأنت مراءٍ!" لا تستسلم له، ابتليت به فادفعه بسؤال الله الصدق، أكيد أنك لن تسأل الله الصدق إلا إذا كنت خائفًا من الكذب، أكيد لن يأتيك الوسواس وأنت أصلًا كذّاب، الكذّاب أصلًا لا يهمه لكن الصادق هو الذي يأتيه الشيطان فيوسوس له، يأتي يوسوس له أن مقصدك غير صحيح وأنت أردت أن يقول الناس عنك أنك حاجّ أو تريد أن يقول الناس عنك أنك تكرر حجّك، اسأل الله الصدق.

النوع الثاني من الوساوس: تريد أن تصدق وتريد أن تُقبل فيخوفك الشيطان من الحجّ نفسه، يخوفك من الحجّ ويخوفك من الأعمال ويشعرك أنك لن تصل إلى أي مصلحة من مصالح الحجّ، لن تصل للمقاصد، ويقول لك: "السنة الماضية حججت وما رأيناك تغيرت!" إلى آخر هذا الكلام الذي هو من وسواس الشيطان.

كلا النوعان مراغمته عبادة لله، ماذا أفعل في الوسواس الذي يقول لي: "لن تصلح ولن تتغير وما منك فائدة" أو يخيفني من نفس العمل؟ ادفعه بطلب الله -عزَّ وجلَّ- أن يشرح صدرك لهذا العمل وييسر لك أحسن صحبة وأحسن حال، وأن يجعل هذا الحجّ فيه المنافع لك؛ فيصلح قلبك وتستقيم على أمر ربك.

الوساوس لا بد أن تُدفع ولا تُترك، غير صحيح أن يقول أحد: "أنا تركت الحجّ مع فرصة الحجّ لأني ما تغيرت! أذهب للحج وأرجع مثلما كنت، لا يوجد أمل!" هذا من كلام الشيطان ليس من كلام أهل الإيمان.

فلا تترك فرصة أتتك بسبب الوساوس أو تبقى طوال الوقت موسوسًا في نيّتك، في مقصدك، هذا من وساوس الشيطان؛ لأن كثيرًا ما يأتي أحد يقول: "أنا حينما فكرت في مقصدي لم أجد عندي مقصدًا جيدًا، أكيد عندي مقصد سيء!" ويستلمه الشيطان بالوسوسة!

ويأتي من يقول لك: " لا تفكر في هذا الكلام، اذهب للحج مباشرة!" كأنه يرى الهروب من وسوسة الشيطان في المقاصد ترك التفكير في المقاصد! لا، هذا غير صحيح، فكر في المقصد وشوّق نفسك للحجّ، أنت أكثر شخص تستطيع أن

تشوق نفسك للحج إذا كنت مقبلًا عليه، شوق نفسك أنك سترحل وتترك وراءك الدنيا وستأتيك الفرصة لذكر الله ولدعاء الله ولسؤال الله ولخلو قلبك من الدنيا وأهلها، ولمعرفة المعاني الكثيرة التي تسمعها عن يوم القيامة وعن رحلة الإنسان وعن الوقوف بين يدي الله، كل ذلك تراه مشاهدًا، فشوّق قلبك لذلك، ولا تجعل مبعث عملك مجرد تقليد الناس أو لا أريد أن أفكر لماذا أن ذاهب؟

الشيطان يؤثر على الناس إما يوسوس لهم في مقاصدهم، إما يجعلهم يجدون الحل "حتى لا أوسوس في المقصد لا أفكر في المقصد!" بل فكر وشوق نفسك ورغّب نفسك فيما عند الله، رغّب نفسك في أن ترجع طاهرًا من الذنوب حتى تحافظ على هذه النتيجة التي خرجت بها، ورغّب نفسك أنك في كل مرة توفق لأن تحج، سيصلح شيء من أمراض قلبك، سيصلح شيء من تفكيرك، فرغّب نفسك فيما عند الله.

إذًا هذا باختصار معنى العبادة القلبية وهي الصدق، هذه عبادة الصدق كانت فيما مضى واضحةً جدًا لأن الحجّ ما فيه رفاهية، فما كان يذهب له إلا الصادقون، ثم بُعد المسافة بين أماكن الناس وبين الحجّ كانت تزيدهم شوقًا، أما الناس اليوم على أقصى أحد يحتاجون إلى ثلاثة أو أربعة أيام حتى يصلوا للحرم، هذا أقصى الخلق.

سهولة وصول الناس للحج والرفاهية الموجودة في الحجّ جعلت الناس لا يفكرون في المقاصد ولا يشتاقون ولا يتمنون، فلا بد من علاج ذلك بمعرفة ماذا عند الله من وراء هذا الحجّ؟

هذا بالنسبة للصدق، الصدق أصبح هو الباعث الذي يحرك الإنسان للدخول في النُّسك للدخول في الحج.

الإخلاص شيء آخر، الإخلاص هو عمل القلب أثناء القيام بالنسك، أين نتكلم عن الإخلاص؟ نتكلم عن الإخلاص أثناء القيام بالنسك، متى نتكلم عن الصدق؟ الصدق أين موطنه؟ هو الدافع الذي يدفعك للدخول في العمل، أما الإخلاص فهو الحالة التي أنت ستكون عليها وقت قيامك بالنسك، من التلبية إلى رمي الجمرات، وهذا أحد مقاصد الحج، أن تتدرب على الإخلاص في كل شيء، سهل علينا أن نتدرب على الإخلاص في الصلاة، سهل أن نقول: "أخلِص في الصلاة!" لكن هل أقول لأحد: "أخلِص في رمي الجمرات؟!" هو سيرمي حجارة، فأين الإخلاص فيها؟ إذا لم يكن يفهم القضية الحقيقية، سيشعر أن رمي الجمرات عمل ما فيه زيادة، ليس مثل الصلاة عبادة يمدح الإنسان على القيام بها، يشعر أن رمي الجمرات عمل بسيط! فأين الإخلاص في رمي

الجمرات؟ وهذه هي صعوبة الإخلاص في الحج، هناك ثلاثة أنواع من الصعوبات في الحجّ:

النوع الأول: صعوبة في الإخلاص.

هناك أعمال في الحجّ لم نعتدْ أن نطلب فيها الإخلاص، نحن عادةً نطلب الإخلاص في حفظ القرآن، نقول: "لا بد أن تكون مخلصًا!"، في الصلاة نقول: "لا بد أن تكون مخلصًا!" في الطواف كذلك، لكن لا نقول: "احبس نفسك في منى ولا تتحرك وأنت تريد وجه الله، لا تشغل نفسك بشيء وأنت تريد وجه الله!" هذا نوع آخر من الإخلاص، نوع آخر من الأعمال التي يطلب فيها الإخلاص، يعني حينما يتهور أحد مثلًا ويقول لك: "أنا مللت!" وهو في منى مثلًا! هذا كأنه في داخل الصلاة ويقول لك ذلك! هو في داخل العبادة ويقول لك ذلك! أنت محبوس على طاعة الله! ونحن بالأمس اتفقنا على أن أحد المشاكل في الحجّ أنه غير مفهوم، يعني أنت في الصيام تحبس نفسك طوال النهار عن أن تأكل، وفي الليل تحبس نفسك على أن تقوم، وفي الزكاة تحبس المال وتخرجه، وفي الصلاة تحبس بدنك ووقتك على وقت معين من دخول الصلاة إلى خروجها وبمجرد أن تنتهي الصلاة تكون انتهيت، وهناك في النهار انتهى الصيام وفي الليل انتهى القيام، لكن في الحجّ من أن تُلبي إلى أن ترمي جمرة

العقبة الأخيرة وتخرج وأنت محبوس على طاعة الله! فهذا الفرق عدم فهمه يسبب مشكلة، يأتي من يظن أن في وسط المدة لا بأس أن يفلت، يفلت تمامًا!

نحن نقول: تخيل هذه هي الحياة والمطلوب أن تبقى يومك وليلتك محبوسًا على طاعة الله، وأنت تأكل محبوس على طاعة الله وتشرب محبوس على طاعة الله، وحتى الذي يتحلل التحلل الأكبر ويكون معه زوجته مثلًا وهو في هذه الحالة أيضًا إذا اقترب من زوجته مثلًا فلا زال محبوسًا على طاعة الله، يعني أنت داخل الحياة لكن محبوس على طاعة الله، ما تخرج عنها أبدًا، فهذه حالة مختلفة تمامًا عن بقية العبادات، وهذا هو المطلب العظيم في الصلاة، في الحجّ، أن تتصور أن الحجّ صورة الحياة، مطلوب منك يومك وليلتك وكلما فرغت أن تنصب، كلما فرغت تعبد وتسأل، تقوم بحاجاتك الأساسية باختصار، ووقتك الكامل لطاعة الله، تبقى طوال الحياة ذاكرًا لله، راحلًا حيث أراد الله، تسأل الناس الآن: أين يريد ربنا أن نذهب الآن؟ يقولون لك: "الآن نذهب إلى عرفة، الآن نذهب إلى مزدلفة، الآن نبيت في العراء!" في العراء، تغطيك السماء وتكون على الأرض، هذا أمر الله وهذه الحياة تأتي مواقف تكون فيها على الأرض وتكون في أحسن حال، ثم تتقلب في الأقدار وأنت مؤتمر بأمر الله،

راضٍ بما قسم الله، راضٍ بشرع الله، فهذا مقصد عظيم أن تكون مخلصًا، تنام وأنت مخلص، يعني النوم في مزدلفة عبادة وقربة؛ لذلك لا أحد ينام في نهار عرفة؛ حتى يوفر النوم للعبادة، للطاعة، ويجب أن تشعر أن كثرة الحكايات تخالف القربة وهي النوم، إلا إذا ذكرنا الله وذكر الناس الله، وإلا إذا الناس لم يناموا، أحيانًا يكون المتعجلون حابسين أنفسهم لا يريدون أن يناموا فيذكروا الله أو يتذاكروا علمًا، هذا لا بأس مازال في دين الله، لكن الأصل في مزدلفة أن تنام، والنوم يحتاج إلى إخلاص، النوم هنا قربة إلى الله، السير هناك قربة إلى الله، رمي الجمرات قربة إلى الله، الحبس في منى قربة إلى الله، وهكذا سيتغير الإخلاص، يعني أنت في الصلاة في أيامنا في حياتنا تدخل الصلاة فتخلص لله، تخرج منها فتصبح منطلقًا، لكن هناك في منى وعرفة ومزدلفة طوال الوقت مطلوب منك أن تتحرك في طاعة الله، مخلصًا لله، وهذه أول عقبة نواجهها؛ عدم تصور أن كل الأعمال هنا إنما داخلة في الإخلاص ورأس مالك وقتك، ووقتك هنا دائر حول الامتثال لأمر الله؛ إذًا علينا أن نذكر أنفسنا: "أنت مصلٍّ وصائم وذاكر وعابد دائمًا لله، وهناك في الحجّ حابس نفسك على طاعة الله" وذكر الله طبعًا أهم ما يطلب فيه الإخلاص.

النوع الثاني من أنواع الصعوبات في الحجّ هو: مشكلة الاختلاط بالناس.

هذه المشكلة تسبب غالبًا أن يُرى الإنسان وهو يعبد الله، لا بد أن يرى وهو يعبد الله، تريد الذهاب إلى هنا وهناك وتريد أن تطيل في صلاتك وتطيل في سجودك وعندك ما تقوله لرب العالمين من شكوى نفسك وشكوى أحوالك وطلب جنات النعيم وطلب أن يغفر لك، عندك شيء كثير تريد أن تقوله، فتريد أن تقف في الصلاة وتجمع قلبك وتتمنى أن جمع قلبك هنا في الصلاة والتركيز فيها يسبب لك أن تصلي في بلادك حينما تعود مثل هذه الصلاة الحسنة. فتجد الناس يصلون معك وينتهون ويتكلمون وأنت ما زلت تصلي، فيدخل في النفس غالبًا أمور صعبة من جهة التفات نظرهم إليك والتفاتك أنت لهم أيضًا، فتحدث نفسك وتقول: "انتهوا كلهم من صلاتهم وأنا لم أنتهِّ"، كل هذا يخدش الإخلاص، كأنك تقارن نفسك بهم وتُعجب بعملك! فهذه مشكلة كبيرة ونادرًا ما تستطيع أن تنفرد في طاعتك في الحجّ وخصوصًا في الصلاة، فهذا يحتاج منك إلى مقاومة شديدة لكي تسقط الناس من حولك، وهذا الأمر ليس من السهل، بل يحتاج إلى كثرة ابتهال إلى الله، ولا نريد الوسوسة، بل استعِذ بالله من الشيطان حينما يقول لك: "أنت لست مخلصًا!" وكن حريصًا

على الإخلاص؛ لأنه ينفلت سريعًا مع وجود الناس، فإذا قمت تصلي قيام الليل -الرواتب هي التي لا تُصلى في منى لكن النوافل مثل قيام الليل والضحى تُصلى- الناس معك في الخيمة في اليوم الأول يكونون نائمين، في الليلة الثانية قمت وهم قاموا قبلك فتشعر أن عيب على مكانتك أن تكون آخر من يصلي! فطوال الوقت تجد الإنسان يقارن نفسه بالجماعة، ويريد أن يكون أفضل منهم عندهم، ليس أفضل منهم عند رب العالمين، أنت ليس لك علاقة أنت أفضل منهم عند رب العالمين أو لا؟! أنت لك علاقة بمكانتك أنت عند الله.

هذا كله يُشكل على الإخلاص وقد كان السلف إذا دخل عليهم أحد وكان في يدهم مصحف، غطّوه، كان يبيت أحدهم ليله باكيًا ثم يصبح الصباح فيقول: "ما أشد الزُّكام!" كان يُحدَّث بالحديث فيبكي في داخله ويشعر به فيقول: "عيناي متورمتان وأنفي كذا!" أهمّ شيء لا تظنّوا بي كذا وكذا، هذا كله من كلام السلف واقرؤوا حتى تعلموا كيف كان فعل القوم! أحيانًا تحصل أعمال في بعض المخيمات ضد الإخلاص، يقولون: "سنُجري مسابقة، كم شخصًا ختم في خلال أيام الحج؟" تختم أو ما تختم هذا شأنها مع رب العالمين، ماذا تريدون منها؟! وتصوروا من تكون أول مرة تحجّ، يلبسونها أبيض على أنها قُبلت عند الله! لماذا؟! هذه

الخرافات النِّسائية الخطيرة تحتك تمامًا بمفهوم الإخلاص ومقصد الشريعة، بل ويحصل أسوأ من ذلك، كلما ابتعد الناس عن السُّنة كلما جاءت الخرافات والبِّدع، ثم تسمع: "هل الذي فعلناه حرام؟!" يسألونك هذا السؤال، يُدخلونك في خانة الحرام والحلال وليس هذا وقت أن نقول: "حلال" أو "حرام"، أو نسأل "هل هذا يوافق مقصد الحجّ أو لا يوافق مقصد الحجّ؟" ونحن لو وصفنا لأحد من العلماء بالتفصيل الذي يحصل سيقول إنه لا يصح! لكن ليس الآن وقت الكلام عن الحلال والحرام، أنت خرجت من أجل أن يراك الله ولا يراك أحدًا غير الله، يأتي من يقول: "إذا كنا نريد أن يرانا الله ولا يرانا أحدًا غير الله فنخرج نحجّ كل شخص بمفرده!" الحجّ ليس بهذه الطريقة، يجب على كل الخلق أن يخرجوا، من مقاصد هذا الأمر أن تتدرب على الإخلاص في أي مكان، ألست سترجع إلى بلادك، وتعاشر الناس، وتعامل الناس؟ إذًا يجب أن تتعلم أن تعامل الناس من أجل الله ولا تلتفت لرؤية الناس. وهذا من أصعب الأشياء علينا حقيقةً، لا نستطيع أن ندّعي أننا لا نقصد الرياء ونقصد وجه الله. أنتم تعرفون حديث النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليْكم الشِّرْكَ الأصغرَ قالوا: وما الشِّرْكُ الأصغرُ؟ قالَ: الرِّياءُ.»[7].

[7]() أخرجه أحمد (23680).

وهناك رواية أخرى للحديث عن أبي سعيد الخدري قال: «خرج علينا رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- ونحن نتذاكر المسيحَ الدجالَ فقال: ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيحِ الدجالِ؟ فقلنا: بلى، يا رسولَ اللهِ قال: الشركُ الخفيُّ: أن يقوم الرجل فيصلي فيزيدُ صلاتَه؛ لما يرى من نظرِ رجلٍ.»[8]، أي أن الرياء أعظم عند الرسول من الدجال، والدجال فتنته معروفة وعظيمة ومن أخطر الفتن التي كانت ولن يكون مثلها فتنة، لكن الرياء أعظم منه! وحين يسمع أحد فينا عن الشرك الأصغر يظن أن أصغر يعني صغير! لكن كما قال ابن مسعود ذاكرًا المقارنة بين المعصية والشرك الأصغر: "لأن أحلِفَ باللهِ كاذبًا أحبُّ إليَّ من أن أحلِفَ بغيرِه وأنا صادقٌ"[9]، فالكذب معصية والصدق قربة، والحلف بالله توحيد والحلف بغيره شرك، فهو يرى أنه يحلف بالله كاذبًا -يعني اليمين الغموس- أهون من أن يحلف بغيره صادقًا، إشارة إلى أن الشرك الأصغر عظيم، هو فقط اسمه أصغر مقارنة بالأكبر. وفي أصح أقوال أهل العلم "إن الشرك الأصغر لا يدخل في الموازنة" بمعنى أن يوم القيامة الإنسان إذا كان مشركًا شركًا أكبر أو أصغر، القول الراجح فيه أنه يحبس عن الموازنة، فالمشرك شركًا أكبر -والعياذ

---

[8]() أخرجه ابن ماجه (4204).

[9]() أخرجه الطبراني (9/ 183) (8902).

بالله- سيدخل النار، والخلاف في الأصغر، والرأي الراجح عند العلماء "إنه لا بد أن يدخل النار يعاقب على الشرك الأصغر ثم يخرج فتوزن حسناته وسيئاته فإن غلبت حسناته دخل الجنة."

معنى ذلك أنه لا يدخل في الموازنة معناها في لحظة يصبح لا بد من دخوله النار، المسألة ليست يسيرة، لماذا هذا الجزاء؟! لأنك خرجت موحّدًا لله، خرجت تقول: "ما أريد إلا ثناء الله"، فلا بد ألا يلتفت قلبك لثناء غيره.

ونعود مرةً أخرى نقول: لا تسمح للشيطان أن يوسوس لك ويفسد عليك أعمالك ويقول لك: "أنت مراءٍ!"، بل حين تدخل إلى الأعمال جردها ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، واسأل الله أن يدفع عنك الرياء واستغفر الله من أي شيء حصل من هذا الباب علمته أو لم تعلمه، وكن جادًا في ذلك.

النوع الثالث من أنواع الصعوبات في الحجّ والتي تواجه الإخلاص: أن يغفل الإنسان في أحيان كثيرة عن معنى الإخلاص الحقيقي، فيبقى اسمًا بلا روح!

لا نقصد بغفلة الإنسان أنه يكون قصد غير الله في عمله أو التفت إلى ثناء الناس، بل حين نسأله: "هل أنت مخلص؟" غالبًا يكون الجواب: "أنا أريد وجه الله وما أريد وجه غيره"،

الحمد لله طالما ما أردت وجه غيره فأنت خرجت من الرياء والسمعة، لكن "هل اقتربت إلى عين الإخلاص؟" عين الإخلاص يجب أن يكون فيها تفكير تفصيلي، ما هو التفكير التفصيلي؟ أول التفكير التفصيلي في الإخلاص أن تعلم أن الله يسمعك ويراك، يرى مشهدك ويسمع كلامك، يرى مشهدك أين أنت؟ في أي مقام قمت؟ كم اجتهدت؟ أي شيء قام في قلبك؟ هل تريد وتشتاق أن يرضى عنك؟ هذه إرادة لك يعني هذا مبتغاك، تريده أن يرضى عنك ويثني عليك، وأمام كل هذه الكلمات ستقول: "وحده"، يعني مرادك بهذا الفعل أن يثني عليك الله وحده مرادك أن تمدح في السماء، لا تفكر إلا في رضاه، فيجب أن يكون عندك أمران معًا:

الأمر الأول: أنك تعلم أن الله يسمع كلامك ويرى مقامك وأنك تفعل ما يرضيه، فعلت هذا من أجل أن يرضى ويثني عليك في السماء.

تصور أنك تمشي في الحرم تطوف طواف القدوم أو الإفاضة، ثم هذه امرأة عجوز وتحاول أن تحميها من أن يدفعها أحد، في الزحام لا أحد يراك، ذهب الرياء وبقيت السمعة، فأنت ستكون حريصًا على ألا تتكلم أنك فعلت أو ما فعلت وهذه مشكلتنا بعدما نرجع من الحج، نتكلم ونقول: "أنقذنا هؤلاء وسقينا هؤلاء وأعطينا هؤلاء!"

الأمر الأول من مسألة الإخلاص انتهى لا يوجد أحد يراك، صحيح أنك في الزحام وأمام الناس لكن لا أحد ملتفت لك.

يأتي الأمر الثاني حتى يتحقق قلب الإخلاص: أنك تفكر لماذا تفعل هذا؟ ليس بدافع إنساني فقط هذا الدافع الإنساني ما فيه مشكلة، لكن أنت في مقام أعلى من الدافع الإنساني، أن الله يسمع كلامك ويرى مكانك وأنه يحب هذا العمل، يحب أن تعطف على المسلمين، فتناجيه بقلبك "أني ما عملت هذا إلا لكي تثني عليّ أنت، أنا أريد ثناءك عليّ، لا أريد ثناء غيرك"، فأنت تفكر

- أن الله يرى مكانك.
- ويسمع كلامك.
- ويحب منك هذا الفعل.

هذه ثلاث خانات ثم تطلب منه وترجوه أن يثني عليك، فعلى ذلك الإخلاص فيه شقين:

الشق الأول: شق أنت تدفع نفسك فيه أن تطلب ثناء غير الله، الذي هو تركك للرياء والسمعة.

الشق الثاني: تبذل جهدك في أن تطلب ثناء الله. فهذا الشق أنك طالب لثناء الله هو الذي فصّلنا فيه في جملتين: تكون

تعلم أن الله يرى مقامك ويسمع كلامك ويحب منك هذا الفعل، فتتوجه إليه تناجيه بقلبك قبل أن تناجيه بلسانك، "أن اقبل مني، أثنِ عليّ، أنا فعلته من أجلك، أنا أعلم أنك تحب أن أرأف بالمسلمين، أرأف بعبادك وأنا فعلته من أجل أن ترضى!"

انظر للفرق الشاسع بين هذه المشاعر ومشاعر الناس الذين يتصورن وهم يطوفون ويتصورون وهم يرفعون أيديهم في الدعاء ويتصورون وهم يسعون! ويأتي أناس ضعفاء لا يعرفون هذه الأشياء ويرون من يفعلون هذه الأفعال فيفعلون مثلهم! يظنون أن هذه من الشرع! وهذه ثقافة ما للشرع فيها أي نصيب، إنما ثقافة الناس الذين يزورون الآثار ويتصورون عندها! نحن قوم ذهبنا نعبد الله لا نريد أحدًا يرانا ونحن نعبد الله، ولو استطعنا أن نغمض أعين الناس عنّا لفعلنا، ولا نصور أنفسنا، وهذا الفخر والرياء دخل لدرجة أن الناس أصبحوا لا ينكرونه، يأتي يقول لك: "هل حرام ما فعلت؟!" نعم، حرام، وقد خطب الخطباء في ذلك، الشيخ السديس -حفظه الله- ما قصّر، كل مرة سواءً كان في رمضان أو غيره من المواسم ينص على هذه المسألة، ألّا تشتغل بالتصوير في الطواف والسعي والعبادة، اشتغل بقراءة القرآن وغيرها من العبادات.

لكن يبقى الناس يشعرون أنه لا مانع، طبعًا هذا ليس في أنفسهم فقط، الذي يخيفنا أكثر أن تأتي المرأة بصغيرها وتجعله يمثل أنه يدعو وتصوره! يعني تدريب على الرياء، ليس فقط فعل الرياء بل تدريب على الرياء! كل هذه مشاكل والناس غافلون عنها، الحقيقة الأصل في هذا الموقف ليس أنهم قاصدون الرياء، بل الأصل أنهم يغفلون عن أن هذا لا يصح، هذا العمل ليس من طاعتك ولا عبادتك بل مما يفسد طاعتك وعبادتك، وسيُدخل الرياء والسمعة، والناس يعرفون كل هذه البرامج الجديدة التي أخرجت أسرار البيوت وأخرجت ماذا أكلنا؟ وماذا شربنا؟ وأين نمنا؟ وأيضًا عبدنا وصلينا، يعني هي أعمال دنيوية وعيب، وهذا ليس من مبدأ الستر في حياة المسلمين، فهي أعمال مخالفة للشريعة في الستر على خصائصنا، أنعم الله علينا نحمد الله ونشكره ولا نتباهى عند الناس، أو ضُيق علينا فهذا ما له إلا الدعاء والاستغفار لكنكم تعرفون أن الناس الآن يذهبون إلى أماكن وهم ليسوا بأهلها فقط حتى يقولوا: "إننا ذهبنا!" ويصورون حفلة الجيران ويقولون: "شكرًا على الهدايا!" هذه الحالة التي وصلنا إليها!

كل هذه الأفعال خاصة بالدنيا وكله معيب لكن حينما تصل هذه الأفعال للدين فهذا معناه أنهم يفعلون أفعالًا تمنع من قبول

العمل! فلا بد من الوعظ المتكرر والتنبيه، الناس حينما يهجم عليهم شيء جديد لا تستقر أفكارهم تجاهه يفعلونه في أي موطن بأي طريقة، لكن حينما يعظ بعضنا بعضًا ويبقى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عسى الله أن يدفع هذه الحالة.

وفي الحجّ والعمرة شرف المكان وعظمته لا يسمحان لنا بمثل هذه الأفعال، والزحام الموجود لا يسمح لنا بمثل هذا، ومع ذلك في وسط الزحام يصورون ويفعلون...! فيجمعون مع الرياء والسمعة إيذاء المسلمين.

هذا في الكلام حول العبادة القلبية التي هي الإخلاص، انتهينا من الصدق والإخلاص. العنوان واضح: من مقاصد الحجّ العبادات القلبية، في الحجّ تظهر العبادات القلبية كما تظهر في بقية العبادات لكن في الحجّ تكون أكثر ظهورًا لأن مدة العبادة طويلة في مقابل أن مدة بقية العبادات لا بد أن يقطعها شيء، يعني طوال نهار رمضان أنت مخلص في الصيام لكن هنا أنت الأربعة أيام أو الخمسة أيام مطلوب منك أن تكون مخلصًا في حبس نفسك على طاعة الله، وهذا أمر يحتاج إلى تجديد وتفكير وكلما أتتك فرصة تكون مخلصًا، وكلما فعلت أمرًا يحبه الله منك اقتربت إلى الله.

نحن ضربنا مثال الجمرات وما أكملناه، تأتي عند الجمرات ترميها فأين سيكون الإخلاص فيها؟ سنفكر بنفس الطريقة، "أني وصلت إلى هذا المكان بنعمة منك يا ربي وراغمت عدوّك وفعلت ما أمرتني به"، فأنت الآن لا ترجم الشيطان نفسه لكن تتبع سنة ابراهيم -عليه السلام- وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعًا إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- : "لمَّا أتَى إبراهيمُ خليلُ اللهِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه المناسكَ عرض له الشَّيطانُ عند جمرةِ العقبةِ فرماه بسبعِ حصَياتٍ حتَّى ساخ في الأرضِ ثمَّ عرض له عند الجمرةِ الثَّانيةِ فرماه بسبعِ حصَياتٍ حتَّى ساخ في الأرضِ ثمَّ عرض له عند الجمرةِ الثَّالثةِ فرماه بسبعِ حصَياتٍ حتَّى ساخ في الأرضِ قال ابنُ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما الشَّيطانَ ترجُمون ومِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ تتَّبعون"[10]

أي: ترجمون متبعين السنة بمعنى أننا في هذه الحال مخلصون من جهة اعتقادنا أننا نراغم عدونا برمي الجمرات مع عدم اعتقاد أن الشيطان هنا، تعتقد أن هذا ائتمار بأمر الله وميراث من إبراهيم -عليه السلام- واتباع لسنة نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فيأتي الإخلاص من جهة مراغمة العدو،

[10]() أخرجه ابن خزيمة (2967).

تريد أن تقوي نفسك على عدوك الشيطان، متذكرًا أن هذه المواطن ساخ فيه الشيطان لما رجمه إبراهيم -عليه السلام-.

يأتي من يقول: "لا أفهم حكمة الرجم؟ ولماذا سبع حصيات لماذا صغرى ثم وسطى ولماذا ندعو هنا وهناك لا ندعو؟ " نقول: الإخلاص يكون في قوة الطاعة والانقياد، أنا أفعل ما أمرتني به، من أجل أن ترضى عني، فهمت أو ما فهمت، أنا أفعل ما أمرتني به، فهذا وجه للإخلاص في الجمرات، وحتى لو توجد إجابات عند العلماء فالأصل أن ربنا يحب منا هذا فنحن نعمل ما يحبه ربنا طلبًا لثنائه.

انتهينا من الصدق والإخلاص وهما مبدأ العبادة، أن تكون صادقًا مخلصًا.

أيضًا من العبادات المهمة جدًا عبادة الخوف والرهبة.

هذه عبادة عظيمة يجد الإنسان الحجّ مكانًا لها، وهذه العبادة يتقرب بها الإنسان إلى رب العالمين إذا وجد ثلاثة أحوال حوله يصل بهذه الثلاثة أحوال إلى عبادة الخوف، لكن ابتداءً قبل أن نكمل هذا الكلام لا تنسوا أن هناك خوفًا طبيعيًا وهناك خوف العبادة، نحن نتكلم الآن عن خوف العبادة التي يتقرب به الإنسان إلى ربه، طبعًا هناك الخوف الوسواسي

وضروري أن نفرق بينه وبين خوف الطاعة، ما الفرق بين الخوف الوسواسي وخوف الطاعة؟

الشيطان يوسوس لك يقول: "ما قُبلت، لن يقبلك ربنا، لن يستجيب لدعائك!" متى يكون الخوف خوفًا وسواسيًا؟ حينما تُشلّ قواك، حينما تتوقف عن الطاعة.

متى تكون خائفًا من الله خوف عبادة؟ حينما يقول لك الشيطان: "أنت لست مقبولًا!"، فتلحّ في الدعاء، وتقول: "يا رب اقبلني!" وتستغفر وتتوب وتسأل الله أن يجبر كل نقص لك، فلا يصبح هناك خوف، يجب أن تخاف من عدم القبول، لكن يصبح الخوف وسواسيًا عندما تقول: "أنا لست مقبولًا!" ويأتيك اليأس.

متى يصبح الخوف طاعة؟ إذا دفعك للعمل الصالح، الخوف يصبح طاعة إذا دفعك للعمل الصالح، يعني ليس حل مشكلة الخوف من عدم القبول أن يقال لك: "أنت لست مقبولًا!" هذا مثل إذا خاف أحد من الموت فقلت له: "لن تموت!" سيموت أكيد، لكن قل له: "استعد لأن تجعل هذا الموت على أحسن ما يكون وتلقاك الملائكة وتبشرك، فتُب واستغفر وأقبِل على ربك وكن من أولياء الله الصالحين الذين يسخر لهم الله الملائكة التي تقول لهم: (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[11]" إلى آخر الآيات العظيمة التي تصف هذه العلاقة.

الشاهد أن الشيطان يستعمل علينا سلاح الخوف، يخوفنا في مسائل هو يعرف أنه يجب أن نخاف فيها فليس الحل أن تؤمن نفسك من هذا الأمر! إنما تفعل ما يزيدك إقبالًا على الله.

إذًا خوف الإيمان يدفعك إلى مزيد عمل، الخوف الوسواسي يشلّ تفكيرك وحركتك وقواك وتصبح يائسًا من روح الله وهذا لا يمكن أن يكون ما يراد من الخوف.

سنعود سريعًا إلى العوامل الثلاثة التي إذا وجدت وجد الخوف:

العامل الأول: العلم بعظمة الله.

العلم الصحيح عن رب العالمين، العلم بعظمة الله يجعل الإنسان يخاف خوفًا حقيقيًا مطلوبًا في الشرع، حينما يعرف من هو رب العالمين، ويعرف عظمته وجلاله -سبحانه وتعالى- ويعرف ملكه وسلطانه وتدبيره، سيقع الخوف في نفسه ولا بد. ونحن كما نعرف رحمة الله التي وسعت كل

[11]() فصلت: 31.

شيء فلا بد أن نعرف عظمة الله وجلاله حتى تحصل حالة من التعظيم وهذا مطلب شرعي.

الأمر الثاني: العلم بما فعل الله -سبحانه وتعالى- في أعدائه.

وهذا أمر لا بد أن يمر على خواطرنا كثيرًا، أنه كيف يتركهم -سبحانه وتعالى- لا يهملهم لكن يمهلهم، وكيف حينما يأخذهم، يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كلما زاد يقينك بأنه -سبحانه وتعالى- قادر عليهم، وأنهم في سلطته -سبحانه وتعالى- وفي قبضته وأنهم مهما طال بهم الزمان ومهما رأيتهم يتنعمون ومهما رأيتهم يجدون من الحياة ما يجدون وقد يحسدهم الحاسدين ويراهم الناس أنهم في أحسن الأحوال، فأنت تعلم أنه إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فهذه المعرفة تزيد العبد خوفًا من الله -عزَّ وجلَّ-.

الأمر الثالث: أن نعلم تقصيرنا ونعلم نقصنا واطلاع الله علينا.

من الضروري جدًا أن نشعر بتقصيرنا ونحن في الحقيقة مقصرون، فلن نمثل دور المقصرين!

نحن حقيقة مقصرون وهذا التقصير يشعر به العبد حينما يعرف عظمة الله، عُد النعم وعُد كم تشكرها ، وستُرى التقصير، عُد النقم المدفوعة عنك وفكر كم سألت الله أن يدفع

عنك وستجد نفسك ما سألت الله؛ لكن الله -عزَّ وجلَّ- بمنّته وكرمه حفظك من هذه المكروهات، كم وقعت في ذنوب والله -عزَّ وجلَّ- لم يعاقبك عليها.

فكر في كل هذا تجتمع لك العوامل الثلاثة:

- الله له غاية العظمة والجلال وهو مالك الملك، مدبر الأحوال.
- وقد فعل في أعدائه ما فعل والخلق شاهدون على ذلك.
- ونحن نشهد على تقصيرنا وهو مطلع على تقصيرنا، وكم عاملنا بحلمه ورحمته.

لكن لا يغرك يا عبد، هذا الحلم من الرب، فلا بد من عدم الاغترار، حينما نأتي في الحجّ ونرى -أنا لا أريد بهذا الكلام أن يقع الخوف الذي يشلّنا أنا أريد أن أذكركم بذلك- الناس الذين حصل لهم الدهس السنة الماضية وماتوا في الدهس، هل تتصور أنهم قبل دقائق من الدهس كانوا يفكرون في الموت؟! لا، لم يكونوا يفكرون في الموت غالبًا، وحصل ما حصل لهم بأمر الله وقضاء الله، فأنت لا يوجد شيء بينك وبين لقاء الله إلا الموت، فقط الموت بينك وبين لقاء الله، فهل أنت مستعد للّقاء؟!

هذا الكلام يجب أن نقوله لأنفسنا دائمًا، يأتي الحجّ ونرى جموع الخلق وقد تكون في وسطهم لا شيء وتذهب ولا أحد يدري عنك، ويهاجمك الموت في أي مكان بسبب الأوضاع الكثيرة المتغيرة التي تحصل لك وانتقالاتك وشدة الأحوال، هذا يجعلك في الأربعة أو الخمسة أيام خائفًا من أن تلقى الله وأنت لست على أحسن حال، أنت لا بد أن تلقى ربك، ومن الشرف أن يلقى الناس ربهم وهم حجاج، هذه نعمة، لكن المقصود أن هذا المكان الذي فيه تنقلات كثيرة وفيه أخطار كثيرة من كل مكان، وأنت لا تشعر بالأمان كشعورك بالأمان كبيتك، تأتيك فيه المخاوف من كل مكان، فيبقى الإنسان خائفًا من أن يلقى ربه وهو لم يفعل ما يجب عليه، وكلما فكر الإنسان في ذنوبه تحرك هذا الخوف، وكلما فكر في أن اللقاء قريب وأن دواعيه كلها موجودة، زاد حرصه على التوبة وعلى الاستغفار، ويستفيد الإنسان من الحجّ فائدة عظيمة من كون أن هناك مواقف كثيرة فيها خوف، مثلًا هذه مواقف حصلت في القطار، الآن أتوا داخلين على القطار، دخلت الأم والأخ والابن وبقيت البنت في الخارج، فأصبحوا يصرخون أن توقفوا! بنتنا في الخارج لو تركناها تاهت، رعب شديد أصاب الأم والأخ والأخت! ورعب شديد أصاب البنت، فكر بهذه الطريقة في يوم القيامة، حينما يتفرق الناس، فيدخل

أناس إلى جنات النعيم ويدخل أناس إلى الجحيم، وقال تعالى: (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)[12] كيف حصل هذا الافتراق؟! يعني مخيف جدًا أنك في الخارج وأنا في الداخل، وفي النهاية قد يوقفون القطار وفي النهاية قد يمسكها أحد ويوصلها، وفي النهاية قد نكلمها بالهاتف ونقول لها افعلي كذا وستصل إن شاء الله، فهذا موقف له حلّ، لكن المواقف التي ليس لها حلّ! ماذا سنفعل فيها؟!

فهذا موطن للخوف شديد، وهناك موقف آخر، أن نركب القطار كلنا ثم يقولون: "تعطل القطار في وسط الطريق!" معناه لن نصل الآن، نظل نفكر ونفكر في التفاصيل ولا نفكر كيف يكون الحال حينما نُحبس عن رب العالمين؟ انظر للمنافقين يمشون ويمشون ويظنون أنهم سيدخلون إلى جنات النعيم! ثم يُضرب بينهم بسور له باب، ولن يدخل إلا من دخل من الباب، هم كانوا يمشون جماعة فظن الجماعة كلهم أنهم سيدخلون، ثم يُضرب بسور فلا يبقى إلا بقدر الباب، فيخرج على الباب حد الالتقاء بالناس المؤمنين من بين كل هؤلاء، أنت ذاهب إلى عرفة تتمنى أن تكون في أحسن حال للقاء رب العالمين ثم تُحبس في الجو لا أرض ولا سماء!

[12]() الصافات: 55.

مثل هذا الموقف يشعرك بمشاعر كيف لو حُبس العبد عن رب العالمين، كيف لو ظن أنه سيصل ثم لم يكن من الواصلين؟!

كل هذه المواقف تساعد على إثارة عباد الخوف، أنك يجب أن تعرف كيف تخاف، انظر كيف نخاف من أن نتهوه عن الراية ونحن سائرون في الحجّ ما نطلب الهداية! تريد أن تهتدي أين مخيمك، احرص أكثر أن تهتدي أين هي سنّة النبي الكريم.

فكل هذه المواقف بالإجمال الذي يتفكر فيها ببصيرة يرى أنها لا بد أن تُنفض عن قلبه الأماني الحاصلة، هو يشعر أنه مهتدٍ وهو ما يتذكر في حياته كلها أنه خاف أن يضل! كيف لا تخاف من أن تضل! يجب أن تخاف من أن تضل، وأنت تقرأ أن هناك قومًا قال عنهم الله تعالى: (يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)[13].

لا نريد أن يتحول هذا الخوف إلى خوف وسواسي، إنما إذا خِفت أن تكون من القوم الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، اسأل الله الهداية، اسأل الله التوفيق، اسأل الله أن يثبتك على طريق الحق، قل: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك!"، قل: "اللهم اهدني وسددني!"، كن صادقًا في هذه المطالب

---

[13]() الكهف: 104.

كلها؛ من أجل ألا تتحول هذه المخاوف إلى مجموعة وساوس!

الأمر لم ينتهي المسألة واسعة جدًا لكن ربما هذه الإشارات تنفعنا في المقاصد، أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يرزقنا جميعًا حجًا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة.

السلام عليكم ورحمة الله